سادسًا : تداعيات الحوار الثقافي

١- الحوار وتجديد الخطاب

٢- الأستاذية والحوار واحترام الذات

٣- صناعة برامج الحوار الثقافى وواجب الجامعة تجاه شبابها

٤- نتائج الحوار الثقافي

٥- الحوار الدينى وتجدُّد الخطاب

٦- الحوار وأبواب الاجتهاد

obeikandl.com

obeikandl.com

١

الحوار وتجديد الخطاب

يظل مطلب التجديد فى منظومة الحوار الثقافى هلاميًّا وغير واضح المعالم فى غيبة دوائر الحوار الواضحة ومستوياته المحددة، حين تتأسس عليها محاور العمل المشترك، بما يضيف الجديد من صيغ الابتكار، لاسيما إذا توجهت المقاصد إلى تثقيف النشء، وتعزيز دور الموروث والمعاصرة فى تكوينه.

من هذا المنطلق كثرت أصوات المطالبة بتجديد صيغ الخطاب الثقافى من منظور تربوى وقيمى وتعليمى وشبابى وديني. كثرة المؤسسات القائمة على الدراسة والإنجاز والتحليل؛ الأمر الذى يتطلب إعادة النظر فى دور الحوار بوصفه مدخلا أساسيًا وقاسمًا مشتركا بين كل الصيغ والمقومات الثقافية، وهو ما يتطلب – أيضا – إعادة قراءة الواقع بكل مشكلاته وأبعاده وسلبياته فى محاولة تحسينه وإصلاحه، وتوجيهه الوجهة الصحيحة تجاه رؤية المستقبل.

وعلى هذا يصبح حوارنا حول ظاهرة " الحوار" أصلًا من أصول تجديد الخطاب الثقافي، دون أن يعنى هذا – بالضرورة- حداثة الظاهرة الحوارية فى الثقافة العربية، بقدر ما يعنيه من أصالتها وعمقها وتجذُّرها فى بنية الفكر العربى على مدى رحلته الطويلة، عبر حقبه وعصوره المتلاحقة.

ذلك أن منهج المفكرين العرب لم ينطلق أبدًا على أساس تصادمى أو صراعي، وإلا فقدوا أهم آليات التثاقف، ومداخل التجانس مع بقية الثقافات التى عكفوا على الترجمة منها وإليها، بدءًا من الترجمة الحرفية، وارتقاءً إلى الترجمة بالمعنى، وتتويجًا

للترجمة بما أضافوه من مشاركات عبر نظرياتهم ونتائجهم، وما دونوه من ملاحظاتهم وأفكارهم وآرائهم ومواقفهم.

بدا الحوار لديهم أصلا من أصول التعامل مع شعوب الأرض قبولًا ونقاشا وجدلًا وأخذا وعطاء وتأثرًا وتأثيرا، وإلا حكموا على حضارتهم بالانكماش والانحسار، وهو مالم يحدث لها إلا تحت ضغوط الاستعمار ومراحل الاحتلال، والانصراف إلى مواجهة قوى الطغيان والهجمات الشرسة التى بدت حاقدة عليهم من قبل الآخر.

وعلى الرغم من رحلة المعاناة التاريخية ظلت الثقافة العربية صامدة بحكم ثوابتها وأصولها ومقوماتها، وبحكم مرونتها وإنسانيتها وامتدادها وتواصلها وقدرتها على البقاء، ولو كانت ثقافة هشة أو عارضة لأصابها من صور التلاشى والفناء ما أصاب غيرها، ولتحولت إلى ثقافة تاريخية بدلا من وضعها ثقافة حية تمتلك من آليات التواصل ما يضمن لها التجديد والاستمرارية والبقاء.

الصحيح فى رحلة تلك الثقافة – إذًا– ما تمتعت به من الموسوعية والإنسانية وسعة الأفق، وجميعها مبنية بنية حوارية محكمة بما يمكن تحديده – علميا – فى نقاط محددة:

- فالإنسانية حوار وتعارف يتجاوز حد التعصب ودوائر الانغلاق على الذات تجاوزه الحدود الفارقة بين المذاهب والأديان، حيث يظل التشبث بها تيارًا مناهضًا لوحدة المعرفة الإنسانية، وما ينجم عنها من التعددية والثراء والإثراء.
- والموسوعية حوار بين العلوم والمعارف على اختلاف تخصصاتها، بين الإنسانى والمجتمعي، والنظرى والتطبيقى والإبداعي، وجميعها تسير فى اتجاه التكامل الذى يبنى جسور التواصل الإنسانى فى أدق مشاهدها وأرقاها منزلة.

- وسعة الأفق لا تتأتى أصلًا من الاستعلاء أو المباهاة، بل بمنأى – أيضًا – عن مستوى الانبهار والدهشة، والتماهى فى الآخر من باب التقليد الأعمى لاسيما لدى الأمة الغالبة، إذا قبلت التنازل عن حقوقها فى الانتقاء بما لا يضر هويتها، ولا يهمش كيانها، ولا ينال شيئا من تاريخها وأصالتها.

على هذه الأسس يظل الحوار المدخل الأول لمنظومة التجديد الثقافى على اختلاف أبعادها، ومحاورها ومستوياتها وأبعادها، كما يظل الأصل المتين للتواصل الفكرى فى تاريخ الشعوب والأمم.

obeikandl.com

٢

الأستاذية والحوار واحترام الذات

قد يبدو الموضوع – منذ البداية – مؤشرًا للانحياز الصُّراح إلى الأستاذية باعتبارها منهجا وسلوكا ونموذجا وقدوة، وهذا حق لأنه المطلب الأول والمشروع الآمن فى تحقيق الحد الأدنى من مقومات الأستاذية التى مسَّها كثير من التدهور والانفلات – وأحيانا - الانهيار تحت وطأة سلوكيات وضغوط وممارسات ينهض بها بعض الأساتذة خارج السياق والمعجم، إذ ربما صعب توجيه اللوم إليهم بحكم مواقعهم المؤقتة، وكراسيهم الزائلة.

صحيح أن لدينا الأستاذ المثال والنموذج، ولكنه يظل استثناءً يلفت الأنظار، ويشار إليه بالبنان، وكأنه نموذج فرد بالقياس لتواتر أخلاقيات التدنى وظواهرالتردِّى والتى تسمح للبعض بالتنازل عن معطف الأستاذية تحت مظلة سيطرة مصالح شخصية، أو منافع زائلة، أو التنازل عن الصالح العام!

يصعب على المرء أن يرى أستاذًا فى منصب قيادى مرموق، يتزلَّف رئيسه الذى قد يصغره سنا بمفردات لا تليق بقاموس الأستاذية، يتمسح فيه، أوينافقه نفاقا مكشوفا لكل من حوله استحسانًا لكل ما يقول، حتى لو لم يقل شيئا، فكأنما توهَّم أنه قاله أو أوهم الرفاق بذلك..

ويبدو الأمر عجيبًا إذا تنازل عن ثوب الحياء، فصنع ما شاء فى سلوك مستهجن، أومنطق مستقبح، أونموذج مبتذل أساسه النفاق والمراءاة والمراوغة؛ الأمر الذى يدفعك إلى الشك فى منطق "الأستاذية " حين تتدنى إلى مثل هذا المدى البغيض،

والأولى بالأستاذ هنا أن يتحول إلى نمط آخر ينأى به عن جلال الأستاذية وشرف المنزلة والمكانة التى نتوخاها ونتوقعها فى " الأستاذ " عبر مواثيق الشرف والدساتير والأعراف، التى يتوقع المجتمع العام أن لها خصوصية فى عالم الأساتذة بصفة خاصة.

يصعب على المرء أن يجد أستاذا لا يتحدث إلا بمنطق المال، أو اجتلاب الثروة، وربما لا تجد له متطلبًا فى زحام حياتنا المعاصرة من أبناء قد يحتاج رعايتهم ولا بيتا قد يحرص على إقامته؛ ومع هذا تراه منكبا على جلب المال سائلاً عنه، وباحثا عنه بشتى الوسائل والطرق وبصور مزرية ربما يخجل منها الرفاق، ولكنه لا يخجل، ولا تدرى لعلها النشأة التى أصَّلت فى أعماقه حب امتلاك المال لذاته، أو أنها رواسب الحرمان أوالبحث عن الثروة حتى وإن لم يكن فى حاجة إليها!

يصعب على المرء أن يجد أستاذًا يتحول إلى حارس لأستاذ مثله، أويتنازل – بكل بساطة – عن شرف الأستاذية لاسيَّما إذا ظهرت آيات نفاقه مع تغيُّر الشخصية القيادية، فتراه فى الموقع نفسه يمالئ القيادة الجديدة بالمفردات نفسها التى تعكس كثيرًا من ثقافة الجحود والنكران والقدرة على الأكل على كل الموائد، وهى تعكس- فى الوقت ذاته- قدرة الأستاذ على التعايش مع سوق النفعية الرديئة التى لا تقبلها الأستاذية الشريفة بين القيل والقال، أو بين مشهد النمام الذى يحاول كسب المساحات على حساب الآخر، فهى أستاذية هشة قوامها الكذب والافتراء ومحورها المراوغة والمراءاة، وهو مالا يدركه المسئول إلا حين يرحل عن كرسى المنصب، عندئذ يتبَّين له الحد الفاصل ، بين الصدق والنفاق..

ويظل السؤال الحائر؟ هل الأستاذية أجزاء متناثرة؟ أم أنها كل واحد غير قابل للتجزئة؟ هى عند البعض مجزأة مهترئة حين يقبل الأستاذ – أى أستاذ – أن يتحول إلى أداة أو وسيلة للنفاق ومخادعة المسئول، لاسيما أنه باع ما بقى لديه من شرف الأستاذية.. من المؤكد أن مثل هذا النمط لن ينال يوما سوى ما يحصل عليه من مكافآت مشبوهة، سرعان ما تزول أمام الحقيقة الخالدة، التى ينبغى أن يظل فيها الأستاذ أستاذًا بسمعته وشرف أدائه.

الأستاذ الحق هو القادر على الحوار مع الأشياء والحقائق كما هي، والأفراد كما هى عليه،تحكمه الشفافية ووضوح الرؤية، بعيدًا عن المداهنة والرياء، وإذا كان للأستاذ أن ينافق أويرائى أويزايد فما بالنا بالنشء؟ وهو يتأمل قياداته متصوِّرا فيها المثل العليا والنماذج الرفيعة، وقليل منها – للأسف – قد ينأى بذاته وأخلاقياته عن حد الرفعة والسمو، فهل إلى تصحيح مسار الأستاذية من سبيل يعكسها الاتفاق على الحد الأدنى من المعايير الحاكمة لشرف المهنة وصحة الأداء، وقياس معيارية النفاق الاجتماعى التى يجب أن يبرأ منها الصغار، فما بالنا إذا وقع فيها الكبار!!

obeikandl.com

٣

صناعة برامج الحوار الثقافى وواجب الجامعة تجاه شبابها

الحديث فى الواجب صعب ومتعدد الجوانب والأركان والمساحات والأبعاد بقدر ما يتطلبه الأمر من الجسارة ومواجهة الذات ونقد الواقع، واحترام قراءة النموذج والبحث عن المثال، وهو ما يجب أن نبدأ منه، لننتهى إليه.

ذلك أن واجب الجامعة تجاه الطلاب فى هذه المرحلة – تحديدًا – أصبح مطلبًا مهمًّا إلى حد الضرورة والإلحاح، لمواجهة التحديات والتنافسية من ناحية، وضمان الإجادة وإحسان الأداء وتنمية ثقافة الثقة بالنفس ومقدرات الأمة من ناحية أخرى.

من هذا المنطلق أخذت الجامعة على عاتقها أن تنهض بأبنائها ثقافيًّا بما يكمل لديهم مفهوم احترام الرموز والأعلام والرواد والحوار مع القيادات التى تلتقى مباشرة بالطلاب عبر برامج الموسم الثقافى – مثلًا – بما ينهض عليه من فلسفة تكوين الشخصية وتنمية المهارات، أومحاولة استكشاف القدرات، وتعزيز النماذج القيادية القادرة على إجادة الأداء من خلال التثاقف والتواصل مع الشخصيات العامة.

وتبذل الجامعة جهودها المتعددة لترسيخ مفاهيم الحوار والديمقراطية فى ذاكرة الشباب ووجدانه، وتدريبه على ممارسة حرية التعبير وإبداء الرأى وجدل الفكر والمناقشة والمداخلة دون خطوط حمراء، أو تعطيل لمستوى الحوار، كما تحرص الجامعة على إعلام طلابها بكل ما تتوخاه من وسائل وسبل؛ أملا فى نقل طلابها من

ساحة الفضائيات وفوضى البث العالمى إلى مناطق الحصانة الآمنة التى تتغياها الثقافات القومية من خلال إلمام الشباب بها من باب المعرفة والاحترام، والتواصل والاستمرارية، وبناء عدة ثقافات مطلوبة، منها: ثقافة المواطنة والانتماء، والتثاقف مع الغير والتلاقى فى سياق المشترك، والثقة بالذات ومعرفة الآخر دون تعصب أو انغلاق أو جمود.

كما تبذل الجامعة جهودًا متواصلة فى سبيل دعم الطلاب علميًّا وثقافيًّا من خلال معارض الكتب، ومعارض الملابس التى تمثل مدخلًا اجتماعيًّا جيدًا للتخفيف من الأعباء المالية على أسر الطلاب، وتوفير نمط من الرعاية غير المباشرة لهم، تسهم فى تضامن الأسرة الجامعية وتكافلها وتكاملها.

وخلاصة القول أن الاتجاهات البناءة التى تنتهج الجامعة سبلها ينبغى أن تنمو وتطَّرد بعيدًا عن حالات التدهور السلوكى والقيمي، التى يعكسها الموقف الطلابى – أحيانًا – حين نرى الطلاب يملأون شوارع الجامعة لعبا ولهوا وعبثا بما يتنافى مع المستوى المأمول للطالب الجامعي، فى الوقت الذى تبدو فيه المكتبات خاوية، وربما قاعات المحاضرات.

وقس على مثل هذا الموقف الطلابي- أحيانا- فى عدم احترام الحس الجمعى العام، أو تجاوز منطق صداقة البيئة وتقدير منزلة المجتمع والاعتراف بدوره فى التشكيل الإنساني، والأخطر منه ما قد يتهيأ للشباب من ملتقيات تزيد الأمر سوءا عبر الكافتيريات أو منافذ بيع المسليات، وربما الأدوات المنزلية، أو الملابس الداخلية، أو أدوات الزينة للفتيات؛ وهذه وتلك ليس موضعها الجامعة بوصفها حرم العلم، وموضع الاحترام والتقدير لمنازل العلماء وطلاب المعرفة، وليس من المقبول جامعيا ولاقيميا تحت أى مسمى أو مبرر من الربحية أو غيرها أن تتنازل الجامعة عن تاريخها واحترامها؛ لتتحول إلى " بوتيكات " لبيع المنتجات الشعبية، وكأنها راحت صورة مصغرة من أسواق الموسكى وما يشبهها؛ الأمر الذى تأنف منه العقلية الجامعية، لاسيما إذا ازدحمت الأسواق بغير الجامعيين، أوتخلى أمن

الجامعة عن دوره فى اختلاط الأوراق، دون إدراك لمخاطر الأمور ونتائجها ودلالاتها وتداعياتها.

إن قدرًا من المراجعة المتأنية والنقد الذاتى بات مطلوبا؛ لكى تستعيد الجامعة نقاء تاريخها العلمى ومنتدياتها الثقافية والفنية، بعيدا عن صور الابتذال والاهتراء والترخص التى تدفع الطلاب والكليات إما إلى المزيد من سلبية المشاركة العلمية والفكرية، أو مزيد من التحلل والتحرر السلوكى بما لا يحتمله السلوك الجامعى فى زحام المتغير العالمى عبر السماوات المفتوحة**!! فهل آن لنا أن ننطلق أولًا وأخيرًا من الصالح العام للجامعة، بوصفها المؤسسة العلمية الكبرى بما لها من الوقار والتبجيل وكل الاحترام؟!**

obeikandl.com

٤

نتائج الحوار الثقافي

تُرى ما المتوقع من حوارنا الطويل حول ظاهرة الحوار الثقافي؟ وما النتائج المرتقبة من تتبع مستوياته ودراسة مساحاته، وتحليل أطرافه وآدابه وطبائعه النوعية ومقوماته وأصوله؟ وهل تقف المسائل عند حد إملاء الشروط، أو طرح الطموحات، أو تسجيل الآمال، أو – فى أحسن الأحوال- توصيف الحالة، وتشخيص الوضعية الراهنة - أو المستقبلية - لصيغ الحوار وآلياته؟! .

يبدو الأمر أخطر من هذا كله إذا تأملنا وجوب تفعيل نتائج الحوار بما قد ينتهى إليه من توصيات يجب وضعها موضع المساءلة، أو تحويلها – بقدر ما هو متاح- إلى مشروعات عمل قابلة للتنفيذ والدراسة والمتابعة، بعيدا عن التعقيد، وبمنأى عن افتعال المشكلات أو صناعة المعوقات.

هنا تبدأ الخطوة المهمة فى عالم الحوار، والتى يتوقع أن تتلوها خطوات أخر، ومنها على سبيل المثال :

أولًا : الوقوف على قراءة النتائج بدقة وموضوعية؛ بعيدًا عن الذاتية والانبهار بالذات أو الاستعلاء على الآخر، وبمنأى – أيضًا – عن اللُّهاث وراء ما يطرحه الآخر أو ما يمليه إملاء ربما يتنافى مع الهوية والخصوصية، أو احترام الكيان والشخصية القومية.

ثانيًا : تعزيز صيغ الحوار وأدواته، وتوجيه آلياته إلى ما هو نافع عبر نتائجه وحصاده بعيدًا عن الجدلية العقيمة، أو تزجية الفراغ، أو التعصب للرأى، أو محاولة

تعطيل فكر الآخر وأدلته أو دحض حججه وبراهينه أو إجهاض اجتهاداته.

ثالثًا : التركيز على رصد نتائج الحوار، وتحويلها إلى برامج عمل جادة تعرف طريقها إلى خدمة المجتمع العلمي، والارتقاء بالمستوى القيمي، بعيدًا عن الفوضى والمهاترات، وبعيدًا – أيضًا – عن ضجيج المزايدة والافتعال، أو المبالغة فى تصوير الحقائق.

رابعًا : النظر فى الدقة المنهجية الكامنة وراء الظاهرة الحوارية من حيث المقدمات والنتائج والآليات، وما بينها من سبل الاتساق والتجانس؛ بعيدًا عن قبح المواجهة، وبمنأى – أيضًا- عن مناطق الهجوم والتجريح، أو تحويل المحاور إلى خصم دون مبرر.

خامسًا : التوسع فى تحديد أسس منهجية الحوار من حيث دعم المرتكزات الكبرى التى ينطلق منها؛ وأساسها الاحترام والحرية والانفتاح والمرونة، مع امتلاك الأدوات وتجنب المرسل والمطلق والعام، أو التوجُّه إلى التقوقع فى نطاق الخاص على حساب العام.

النتائج كثيرة ومتشعبة، ولكل نتيجة أهميتها وخطورتها فى ضبط مسار الحوار الثقافي، الذى أصبح مطلوبًا - بشكل مؤكد - فى زحام كثرة الاتجاهات، وتضارب الأفكار، وإملاءات الفضائيات مع تضخم ثورة الاتصالات، وتدفق المعلومات بشكل يتطلب وقفة تأمل ومراجعة لكل ما هو قومى ووطنى وإنسانى فى سبيل تحقيق رؤية أوضح، ورسم خطوات منهجية دقيقة بعيدًا عن الارتجال والعشوائية، بمعزل - أيضًا - عن الفوضى والتجاوزات.

الحوار - فى حقيقة الأمر - حالة علمية لها بُعد إنسانى واجتماعى وقيمى وسلوكى يضمن صدق النتائج إذا ما حسنت أدواته وآلياته، كما يضمن صحة المنهج وسلامة الموقف إذا صحت معه الصيغ والمقاصد والنوايا، قبل أى اعتبار آخر.

ونتائج الحوار – فى حقيقتها- تظل مطلوبة باعتبارها مدخلًا مؤسَّسًا لجديته وتواصله وصدقه وعمقه، دون انحراف به إلى المزايدة أو الاستخفاف، أو الانحدار من خلاله إلى مناطق تصفيه الحسابات، أو صناعة إسقاطات لاتؤمن نتائجها ولا يصح الوقوع فيها أساسًا.

قضية الحوار ونتائجه تستحق من الدراسات التربوية والاجتماعية والنفسية والعلمية ما يتوقع من أهميته وضروراته، دون تجاوز أو قصور بما يعزز حقول دراساته وتعددية الآراء حول مساحاته، وضمان تحويله إلى مشروع ثقافى ناجح بكل المقاييس.

obeikandl.com

٥

الحوار الدينى وتجدُّد الخطاب

نزلت الأديان لتصحيح مسار البشرية كلما ضلَّت سبلها، وتقويم المعوج من الفطرة القويمة كلما أصابها الإفساد، وضبط حركة الأحياء والحياة، وتقنين العلاقات وإحكامها فى صورتها المتوازنة التى تتمتع بالبقاء والمرونة مع تطور حركة المجتمعات دون أن تعرف نهاية للصلاحية.

وجاء الإسلام ليخرج الناس من ظلمات الجاهلية والوثنية وشريعة الغزو والبطش وقهر الآخر إلى نور الهداية واحترام العقل واحترام حرية الإنسان، وتقدير حقه فى الحياة، والحوار والفكر، فكان الخطاب الدينى من قبل رسول البشرية الأعظم صلى الله عليه وسلم منذ دعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادل أهل الكتاب بالحسنى، وكان بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا، وكان أصحابه أشداء على الكفار رحماء بينهم، فكانوا أطلاح عبادة ومصلحى دنيا، عرفوا الجهاد انتصارًا لدينهم، وعرفوا السلم مدخلًا إلى استمرارية الحياة وضمان رقيها، مما يتسق مع دعوة الإسلام إليه، فإن جنحوا للسلم وجب الجنوح له، وهو ما يتسق مع خطاب الإسلام الدائم بعدم المبادأة بالعدوان – والبادى أظلم – حتى مع دعوته لإعداد القوة، فهى القوة المشروعة للدفاع عن النفس والأرض والعرض والمال والحمى والمعتقد، وهى القوة الضامنة لسلامة المؤمن واحترام منزلته، فكان المؤمن القوى خيرًا وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، لأنه قادر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وكان مطلب القوة مرهونًا صراحةً برد العدوان عملًا بتعاليم السماء، وانطلاقًا من سماحة الدين، حتى مع المشركين [وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه]، ومثل ذلك كان الموقف الحضارى الرائع للإسلام من حرية اختيار العقيدة [وقل الحق من ربكم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارًا أحاط بهم سرادقها ...]

وهو اختيار ينم عن أصالة هذا الدين، ورحابة إنسانيته التى لم تعرف الجور، ولم تفترض ظلم للآخر، ولكنها رفضت - وهذا طبيعى – أن يقبل المسلم القهر أو يصمت إزاء الظلم، فالمؤمن كريم النفس عزيزها، فإن اعتُدى عليه وجب رد العدوان بمثله عملًا بالأمر الواضح والنهى الصريح [ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين] [فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم]، وعلى النهج نفسه – أيضًا – كانت دعوة الإسلام إلى العدل المطلق [ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى]. إلى غير ذلك من القيم الإنسانية الرفيعة التى انطلق منها الإسلام منذ وحَّد بين أجناس البشر وألوانهم، متخذًا من التقوى معيارًا للتفوق، ومن العلم مقياسًا لتفضيل أهله، ومن العقل مدخلًا صريحًا إلى الإيمان [أفلا يعقلون ، أفلا يتفكرون] مع تكريم خاص لأولى الألباب، وأولى النهى، ودعوة متكررة إلى التدبُّر والتأمل فى أسرار الكون فى كثير جدًا من فواصل الآيات القرآنية.

وتظل القيم الكريمة مرتبطة باحترام إعمال العقل، فإن أخطأ صاحبه فله أجر، وإن أصاب فله أجران، فكانت حرية الإنسان مقرونة بإعمال أفضل ملكة وهبها الله للإنسان دون سائر المخلوقات، ولعل فى إعمالها ما يضمن له سبل النجاة من مهالك الدنيا ومزالق الأحياء.

كان منطلق الخطاب الدينى بهذا الشكل بادئًا من : منطق المساواة، حرية الإنسان، احترام مساحة التعامل بين البشر شعوبًا وقبائل، رفض الظلم، ورفض الإذلال، نشر منطق الرحمة والرأفة، التكافل مع الجماعة، احترام العقل، إعمال

الملكة، تعزيز العلاقات عبر منظومة الأحكام وصيغ التشريع التى ترقى بالإنسان إلى أعلى منازل إنسانيته، فكان الدين هو المعاملة. وفى هذا المعيار ما يضبط – بالفعل – كل سلوكيات البشر؛ فالمسألة الدينية ليست مجرد طقوس وشعائر، بل جاءت عبقرية الخطاب الدينى فى ربطها جميعًا بالعمل [وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون] وكان العمل قرينة الإيمان [إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ...] [إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ...] وهو قياس محكم خاصة حين تلتقى فى معينه النوايا من حيث الصدق والسلامة، فكان منطق النية محسوبًا على المرء أو له [إنما الأعمال بالنيات ...] ثم كانت ترجمة النوايا عبر أفعال وسلوك فكان مسلك الرجل محكومًا عليه بالإيمان إذا اعتاد المسجد ... وكان هذا هو القياس المنضبط لقانون الأشياء، الموائم للمنطق الصحيح.

وبدت فحوى الخطاب الدينى فى الإسلام مقرونة دائمًا بحب الآخر منذ تنادى أصل الخطاب بأن الله خلق الناس من ذكر وأنثى، وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، ثم جعل معيار التقوى أساسًا للمفاضلة بينهم . ثم كانت دعوة المصطفى عليه السلام لأن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه وألا يتحاسد الناس، وألا يتباغضوا وأن يكونوا إخوانًا فى الله تجاوزًا لعصبية الدم وروابط العنجهية الجاهلية، وانطلاقًا من وحدانية المعبود ووحدة أصل الخليقة، واحترام الروابط الروحية.

لنا أن نتأمل حال المجتمع إن حدث هذا التجدُّد للخطاب الدينى الذى يرقى به إلى أعلى درجة يتوقعها أبناؤه، بدءًا من الدعوة المؤكدة بحسن العلاقة بين البشر بلا تباغض ولا تحاسد، ولا كراهية، ولا تنافر، ولا فحش، ولا بذاءة، ولاسوء خلق. فالحياء شعبة من شعب الإيمان، ثم إن دعوته إلى حب الآخر تظل شاخصة فى كل مطلب للحياة؛ بدءًا من الجار الذى وصَّى به جبريل محمدًا ـ عليه السلام ـ حتى ظن أنه سيورثه، وانتقالًا إلى مطلب إفشاء السلام، ونصح القرناء، والرحمة بالضعفاء، وفك أسر العاني، وإعانة ذوى الحاجات، والوفاء بالعهود، وإكرام

الضيف، ونجدة المستغيث، وإغاثة الصريخ، والصفح عن السفهاء، والعفو عند المقدرة، وسلامة اللسان، وطهارة اليد مما ترجمه الخطاب الدينى مُجملًا فى " حسن الخلق " و" الدين المعاملة ".

تواصل الخطاب الدينى – فى عصر المبعث وما بعده – فى مساق التركيز على مجمل الأبعاد الإنسانية التى انطلقت من تحليل وافٍ للقيم الرفيعة التى دعا إليها الإسلام، ومنها جاء تأصيل البُعد الحضارى الذى انتشر معه منذ انبثق نوره من شبه الجزيرة، ليُعلِّم الإنسان فى أقصى الأرض وأدناها بين المشرق والمغرب كيف يكـون إنسانًا، لا أن يتحـول إلى وحـش، أو بلطجي، أو إرهابي، أو دموي، أو عدواني ! ولا أن ينطلق من منظومة الغطرسة أو الصلف والكبرياء، أو الفجور، أو التعنُّت والقهر، أو استعباد خلق الله، أو كراهة البشر، أو العربدة على حساب الأبرياء على النمط الذى انتهجته وأسست له الحركات الاستعمارية التى سارت فى الاتجاه المضاد لهذا الخطاب عبر اندفاعات هجماتها الشرسة على أنحاء شتى من العالم الإسلامى على فترات متعددة من حقب التاريخ قديمه وحديثه على السواء.

فالإسلام دين التواضع والحب، وله من سلامة الفطرة ما يحتاج إلى تعريف الغرب بحقيقته وجوهره، بعيدًا عن التعقيد والتقعر، أو التبغيض والتنفير، فلو كان رسوله المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فظًّا أو غليظ القلب لانفضَّ الخلق من حوله، ولو لم يكن كما زكَّاه ربه الأعلى " على خُلُق عظيم " لما ساد هذا الدين وانتشر ما شاء الله له أن ينتشر بين أطراف الأرض.

هكذا يكون سلوك المسلم حبًّا للآخر واحترامًا لمساحات التلاقى معه، والتفاعل مع فكره، والتداخل مع نتاج عقله، والرقى فى مجادلته، أو مناظرته أو مساجلته، وهو ما كان سمتًا للثقافة العربية فى تثاقفها وتلاقيها حوارًا مع كل ما حولها بعيدًا عن افتعال التصادمية أو الصراع؛ الأمر الذى ينبئ عن دور علمائنا الأجلاء من ذوى الاختصاص والقرب من كتب التفسير وكتب الحديث لأن يُفقهوا البشرية، وأن ويُعرفوها حقائق الإسلام وجوهـره، وكيف كان – ولايزال

– دين سماحة وكرم خلق بالمعنى الشامل لهذا كله، منذ صدرنا للغرب الأوربى فى عصور ظلامه فكر ابن سينا، وابن رشد، والكندي، والفارابي، وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم، والإدريسي، والخوارزمي، والرازي، والجرجاني، والبخاري، وابن النفيس وغيرهم كثير كثير .. !

أن يتطور الخطاب الديني، وأن يتشكل بلغة عصرية واضحة للأجنبى مفهومة وواضحة لدى الآخر، غربيًّا كان أو شرقيًّا، فهذا مطلب حضارى يتعلق من إيقاع المرحلة، ثم يرقى إلى حد الضرورة، دون قصد إلى تبشير أو أسلمة، ولكنها الدعوة – فقط – إلى تجلية الحقائق، وكشف الأباطيل، وبيان الزيف الذى يحيط بالإسلام إما من معاند، أو مغامر، أو جاهل، أو مغالط، أو حاقد، وإما من غير أهله قصورًا أو عجزًا.

نحتاج اليوم إلى تفعيل هذا الخطاب كما فعَّله رسول الدعوة فى حجة الوداع يوم أن وضع للبشرية قانونًا شاملًا، يبدأ من تحديد علاقة الرجل بالمرأة، وينتهى عند حدود سياسة الراعى مع الرعية، ومرورًا بقضية الإنسان مع أخيه الإنسان عبر وتنظيم قضية الثأر والربا والأحكام، وغيرها من مشكلات الحياة التى بثَّها الخطاب المحمدى فى لغة بليغة واضحة وموجزة كشفت جانبًا مما أوتيه من جوامع الكلم، وحددت موقع سنته الشريفة من حقيقة التشريع الدينى القويم.

كتب واضحة، ودراسات مبسطة تُترجم وتحكى قصة هذا الدين فى يسر وسهولة؛ بدءًا من حضِّه على الفضيلة، وكراهة الرذيلة، حيث تشير إلى ذلك دعوته الدائمة إلى أرفع القيم وأرقى المثل التى بات مطلوبًا أن نقربها إلى ذاكرة الناس فى عصر طغيان المادة وتجاهل النماذج العليا. نحتاج المزيد من تجديد الخطاب الدينى القويم بعثًا لسيرة السلف الصالح ممن أسَّسوا له، وأصَّلوا لمقوماته بعيدًا عن مزايدات المضلِّلين والمزيفين، أو المخادعين والمراوغين والمنافقين ممن يستغلون الموجة فى توجيه المفردات أحيانًا فى اتجاه خاص بغية الإساءة إلى الإسلام، أو التنفير من صورة المسلم الحق، وكأنما مزَّقوا السياق، أو تجاهلوا – أو جهلوا – الدلالات

المعمقة التى يعكسها الخطاب الدينى الصحيح فى أجلى صوره، وأكثرها وضوحًا وصراحة وعمقًا، إلى التأكيد على عالمية هذا الخطاب مكانا، واستمراريته زمانًا بحكم مرونته وعمقه، وأصالته وتميزُّه وسماحته وعصريته معًا، وفى ظلال ذلك كله فليتنافس المتنافسون.

ويبقى السؤال : ماذا لو تجدَّد الخطاب الدينى كما جددته مدرسة المنار الإسلامية وغيرها من مدارس الفكر الكبرى ليتواءم مع طبيعة المرحلة التى ازدحمت بمفردات المعجم البشرى البغيض، وقد بات يرزح تحت ضغوط المادة بكل ما جلبته للبشرية من صور الشقاء والشقاق والخصومة والعداء !

ربما كان فى تجدُّد هذا الخطاب إنقاذ للإنسانية من رداءة واقعها المتردى الذى لم نعد نسمع فيه إلا جرائم الإنسان ضد أخيه الإنسان، قتلًا أو خيانة، أو غدرًا أو كراهيـة وبغضًا، أو عدوانًا حتى على المحارم، أو سرقة أو رشوة، أو إفسادًا فى الأرض، أو مشهدًا من مشاهد الفساد والبغي.. وهو ما يتنافى تمامًا مع منطوق صحيح الخطاب الديني، ومقاصده الحقيقية، ومراميه الموجبة التى أوجزت خط الدفاع عن الإنسان فى " الدفع بالتى هى أحسن " حتى يضمن تحوُّل عدوه إلى ولى حميم.

والمأساة الحقيقية أن معجمنا السلوكى على مستوى الأفراد والأمم قد ازدحم بكل ما هو سئ من جراء الاستجابة لبث السماوات المفتوحة، بدلًا من الالتزام بهدى السماء، ومنطق الأنبياء، ومنطوق الآيات ! بدءًا من غيبة النفس اللوَّامة التى تُراجع وتصحح دعوة النفس الأمَّارة بالسوء، وغابت النفس المطمئنة عنا ـ أو كادت ـ وانتقالًا إلى صورة الزيف والنفاق، ومخادعة الناس، وانتشار الكذب، وغيبة الضمير (وهى غيبة التقوى) والاستخفاف بمقدرات الإنسان، فعادت البشرية إلى شريعة الغاب ـ أو قاربت ـ وعاد منطق الغزو والتلذُّذ بقهر الضعفاء، حيث يرد انتهاك محارم الإنسان تحت طغيان القوى والأرعن، وهو ما يتنافى تمامًا مع إنسانية الإسلام التى تحرم قطع شجرة، أو قتل طفل، أو شيخ ،أو امرأة، على النحو

الذى أوصى به رسول البشرية قادة جيوشه، وسار على منهاجه خلفاؤه الراشدون رضى الله عنهم.

وكان المجتمع الإنسانى قد انتكس فعاد إلى الإجرام فى أبشع صوره عبر الاستخفاف بحقوق الإنسان وامتهان كرامته، أو تخريب العمران على طريقة التتار من أعداء الحضارة وخصوم الإنسان، وهو ما شهد امتداده فى زحام حضارات زائفة، ومدنية مراوغة، وواقع بشع يشهد من صور البربرية والوحشية والهمجية أسوأها، وأشدها قبحًا، يندى لها جبين الإنسانية وضمائر العالم لا تتحرك تجاه منظومة الحق، والخير، والجمال، وحسن الخلق التى التقت عليها ديانات السماء.

يبدو أن غيبة الخطاب الدينى الصحيح قد حولت الإنسان إلى وحش كاسر، لا يعرف الرحمة التى هى أصل من عقيدة الإسلام، ولا يحترم الآخر ولا يحبه، وعندئذ تحول المعجم (البشري) إلى منعطف خطر سيطرت عليه مادية الحضارة بكل ما فيها من قبح أخلاقي، أو تبجحات سلوكية، أو تجاوزات ومزايدات، أو تغييب للقيم التى يتشدق بها دعاتها من أهل الزيف ومروجى الشعارات، أو يكتفى بها أدعياء حقوق الإنسان التى أُهدرت حتى فى أعلى درجات السلم الحضاري. مما يستدعى حتمية مراجعة ما يسمى شكلًا بالمنظمات العالمية، وما أفرزته من وهم القوانين والضوابط وبنود الشرعية الدولية والتى من واجبها أن تحمى حقوق الضعفاء وتضع قيودًا على طغيان الجبابرة والأقوياء.

يتشدق البعض الآن بإسناد الإرهاب إلى الإسلام ظلمًا وبهتانا. والحق أن الإسلام منه براء، وعلى علمائنا وأزهرنا ومجالسنا العلمية وبحوثنا وخطبائنا أن يؤكدوا ذلك عبر كتب علمية مبسطة تترجم؛ لتقرأ فى الغرب الذى تجاهل حقيقة الإرهاب الذى لا يعرف دينًا ولا زمان ولا مكان، فإذا به يلصق بالإسلام ما ليس فيه، كما يلصق بشخصية المسلم الحق ما لا صلة لها به، وإلا ما امتدت دولته من جبال البرانس إلى الصين عبر حركته الحربية والتجارية والفكرية سواء بسواء.

لقد أصبحت لغة العالم الآن شاخصة فى منطق الصراع أو بالصمت، أمام مشاهد وخوارم المروءة، واختراق القانون، وأصبح احترام القانون الدولى ضربًا من الهراء فى مقابل التجرؤ على اختراقه، أو القفز على قرارات الشرعية من سفاكى الدماء ومجرمى الحروب. فأين القانون ـ إذًا ـ وأين الخطاب الحضارى الذى يدعيه إنسان القرن الجديد فى ظل ثورات العلم وتقدم الفكر والثقافة وتراكم المعرفة ؟! أم أن جحافل العصور الوسطى مازالت مطروحة والعالم إزاءها أصم أبكم لا يرى لا يسمع لا يتكلم .. ولا يعلق ولا يفعل ؟!

ليتنا نستطيع إقناع العالم كله برونق خطابنا الدينى حيث نتشبث بمعطياته ونجدده ليحترم فى الإنسان حريته وحقوقه وإنسانيته، ويضمن له حرماته، وعرضه، وماله ودمه، ووطنه، ويقنن علاقته بالآخرين بعيدًا عن منطق الإرهاب والتدمير الذى تندفع منه خطابات أعداء الإنسان.

لقد حرر الإسلام الإنسان كلما جعل تحرير الرقيق فدية فنقل البشرية من العبودية وقهر الإنسان وفجوره فى ظلمه لأخيه الإنسان، وحيث بدا المعجم رديئًا يزكم الأنوف، يحتاج إلى تنقية تعيد توازن الأشياء من منطق الخطاب الدينى الواضح إذا استجاب له أدعياء التحضر، فلم يصموا آذانهم كما صنع مشركو مكة فى عصر المبعث حين أصروُّا على عبادة الصنم أو الوثن تشبثًا بما كان يعبد الآباء !!

نحتاج إلى خطاب دينى جلى يقف من الدين عند جوهره وصفاء مصادره وأصوله، يوضح للناس أصول حياتهم. ويصحح لهم مناهج فكرهم وطرائق علاقاتهم، ويكشف مقومات فهمهم بلا تعقيد أو غموض، لعل الخطاب يؤتى ثماره فى تنمية وعى المخاطب وإثراء فكره، وتعميق فهمه مما يؤصل لمنطق الانتماء والولاء للمعتقد الدينى عبادةً وعملًا وسلوكًا ومنهج حياة.

إن العبء الآن على عاتق علمائنا الأجلاء يبدو أصعب من أى وقت مضى، فقد آن لهم أن يعيدوا النظر فى تطوير الخطاب العصرى الذى شوَّهه البعض بجموده

الفكرى ورداءة أدائه، مما يحتاج إلى تقويم وتصحيح للمسار، وهو ما يؤهلهم لأن يؤدوا الأمانة على خير وجه، انطلاقًا من تجديد الخطاب الجامع بين عطاء الموروث والمستحدث فى صيغة من صيغ الانتقاء والاستصفاء الضامن لاصطناع المصالحة الهادئة بين تراثنا وفكرنا العصرى المتجدد كل يوم مما يمكن تصوره من خلال زوايا محددة أبرزها :

أولاها : تيسير لغة الخطاب الدينى مع البسطاء والعامة من خلال خطباء المساجد فى معالجة قضايا عصرية، والبحث عن حلول لمشكلات الحياة من خلال القياس، والاستعانة بعطاء النص الدينى من مصدرَيْه المقدسين : الكتاب والسنة. ولعل انخراط الخطيب فى هموم الناس ومشكلات الواقع تقرب المسافة بينه وبين جمهوره، فيسيطر على ضميره ووجدانه وفكره، ويبعث فيه الأمل فى إتقان العمل وصناعة واقع جديد ومستقبل أفضل.

ثانيتها : الارتقاء بلغة الخطاب الدينى مع المثقفين والخاصة الواعية لأصول المنهج ومقوماته طبقًا لمستوى المدرك الفكرى لدى هذه الفئة، مما يستدعى معها المزيد من التفاعل والمداخلة، والاعتماد على الجدل العقلى الناضج بعيدًا عن المساجلات والمطارحات التى قد تقترب بنا من عالم السفسطة أو الاستغراق فى الجدلية الفلسفية بلا مبرر.

ثالثتها : الانطلاق من تحديد المصطلح المستخدم فى الخطاب الدينى بشكل جيد ومقنع، فلا داعى لخلط الأوراق أو خلط المصطلحات، أو تداخل الدلالات بما قد يفسد المفاهيم، أو ربما يحول دون فهمها، والوعى بأبعادها الحقيقية إلى قنوات خادعة أو واهمة يحسن تجنبها.

رابعتها : ضمان تعدُّدية هذا الخطاب بتعددية المستوى الفكرى والمعرفى والنفسى والوجدانى للمتلقين، وهو ما يمكن ضبطه إعلاميًّا فى أُطُر التثقيف المنظم للشباب أو الشيوخ، للأميين أو المثقفين، مع مراعاة احترام هذه التعددية فى مواقع مصادر البحث ذاتها عبر الإذاعات المتخصصة، أو الصفحات

المتخصصة بما تنتقيه من مادة تثقيفية قادرة على الجذب والتشويق إلى جانب الإقناع.

خامستها : ولعله أهمها فى هذه المرحلة على وجه التخصيص، وهو الاهتمام والتركيز على نشر الخطاب الدينى فى صورته المطوَّرة عبر أنحاء الدنيا؛ ذلك أن مخاطبة الأجنبى تحتاج – بالتأكيد – آليات مختلفة عن مخاطبة العربى بما يستدعى صورًا من الوعى بهذه الآليات، والتمكن منها، والصدور عنها قصدًا إلى إصلاح ما أفسدته الأحداث الأخيرة من تشويه صورة المسلمين، أو التجنى على صورة الإسلام فى أذهان الأجانب؛ **الأمر الذى يحتاج إلى المزيد من الحكمة والدقة فى إعادة صياغة الخطاب، وإعادة طرحه بتمعن وتأن وجلد يضمن له سلامة الإنجاز وصمته بما يحيله إلى مشروع تثقيفى له منهجه وأصوله ومقوماته، وله أيضًا تداعياته الإيجابية بكل المعايير.**

obeikandl.com

٦

الحوار وأبواب الاجتهاد

هذه هى الحقيقة الكبرى التى انطلق منها الفكر الإسلامى فى دعوته الدائمة إلى التدبُّر، التأمل، التفكر، التعقل مع تكريم خاص لأولى الألباب وأولى النهى لأنهم يتفكرون، ويتدبرون، ويعقلون، ويتجادلون بالحسنى، ومن ثم فهم يجتهدون.

تبقى المسافة واسعة بين الاجتهاد حين يُبنىَ على أصول وأسس ومقومات وضمانات، وبين منطق الفوضى الذى قد يبيح فيه كل إنسان لنفسه أن يزعم ـ زعمًا ـ أنه مجتهد، أو صاحب الحقيقة المطلقة؛ ويتحول الأمر ـ آنذاك ـ إلى تهريج رخيص، أو مزايدة مهترئة على حساب المقدسات سواء فى فهمها أو فى تعريف الآخر بها.

وهذا هو الحد الفاصل بين أبناء اللغة الأم حين يفسرون النص القرآنى الكريم ـ مثلًا ـ وقد امتلكوا زمام لغتهم وسيطروا على دلالاتها، واستوعبوا صورها ومجازها وتراكيبها، وبين المستشرقين حين يتوقفون عند النص القرآنى فيختلف عطاؤهم التفسيرى كثيرًا جدًّا عن العرب بحكم اختلاف درجة الوعى بين ابن اللغة وبين مكتسبها ومتعلمها.

ولعل هذا المنطلق يقارب فكرة ترجمة الشعر التى تفقده أخص جمالياته فى لغته الأم تصويرًا وتقريرًا على السواء، وهى مسألة مدركة قديمًا وحديثًا فى آن؛ فقد تنبه إليها الجاحظ فى القرن الثالث الهجرى لتمتد الرؤية عبر ما تردد حول القضية نفسها على المستوى النقدى فى عصرنا.

من هذا المدخل يصبح من حقنا أن نتأمل ظاهرة التخصص العلمى التى نحترمها ونقدرها، ونُجل أهلها فى عصر التراكم المعرفى المذهل الذى نعيشه، والذى يذكرنا بمطلب الجاحظ القديم فى طموحه إلى تفصيل موسوعية فكر العالم من حيث إلمامه من كل علم بطرف، وهو المطلب ذاته الذى ترنم به الدكتور طه حسين ورفاقه من مؤلفى " التوجيه الأدبى " فى منتصف القرن الماضي.

ولكن هل تسمح ظروفنا المعاصرة بالاكتفاء بهذا الطرف من كل علم لتكوين المثقف فى صورته المثلى، أم أن الأمر يمتد إلى إبقاء احترام مطلب التخصص وتعميق الفكرة، وتجاوز أفقية العلم إلى رأسيته وتأصيله ؟

هنا نجد العلماء فى كل تخصص شديدى الغيرة على مناطقهم التخصصية، باعتبارهم أهل الفتوى والرأى والنظرية والخبرة بحكم وعيهم بأسرار العلم وخفاياه وإدراكهم اللُّباب، فإن تركوا لغير المتخصصين منه شيئًا فهو القشور أو النتائج التى قد يفيد منها الآخر دون ادعاء قدرته على تغييرها، أو الإضافة إليها لأته من غير أهل الاختصاص الدقيق.

من هنا يأتى مطلب الاجتهاد فى العلم فى كل حقوله ومجالاته مرتهنًا بمقومات وأسس وأصول وقواعد، ولا يترك الأمر فيه فوضى للعامة ـ مثلًا ـ أو لصغار المثقفين للإدلاء بدلائهم فى نظريات العلم أو أطروحاته أو مشكلاته، أو العبث بنتائجه وتجاربه أو حتى مقدماته : فهذه منطقة تظل محرمة على غير العالم وهى حل لأهلها فحسب، وهذا حقهم الطبيعى بحكم التخصص.

يقودنا هذا المدخل الطبيعى للحقائق والأشياء إلى حتمية احترام العلماء، وإجلال منازلهم، ومنهم ـ بالتأكيد ـ وفى صدارتهم أهل التخصص الرفيع؛ حين يتصل الأمر بالنص القرآنى الكريم تفسيرًا وإبانة من خلال ضرورة امتلاك أدوات لغوية، وبلاغية، وأدبية، ونقدية، ومجازية وأسلوبية، إلى جانب كم ضرورى من الإلمام بالعلوم المتعلقة بأسباب النزول وعموم الأحكام أو خصوصيتها، أو غيرها

من المدركات الواجبة والمقاصد الضرورية لدى أهل التخصص فى الفقه والشريعة والتفسير وعلوم الدين المتعددة، التى سار عليها السلف وجدَّد فيها وأضاف إليها الخلف جيلًا بعد جيل بقدر ما امتلك من أدوات وثقافات، آذنت له بالإضافة وتجديد الرؤى والأفكار.

وعند هؤلاء ـ بحكم أدواتهم ـ يصبح الاجتهاد واجبًا عليهم، وحقًّا لهم، وتظل ضفاف هذا الاجتهاد مبنية على مدى فهم أبعاد النص واستقراء دلالاته، واستقصاء مراميه، وبيان مقاصده وتفسير صوره ومشاهده بعد القراءة والتمعُّن والفهم والتأمل العميق، لا أن يبدأ الأمر من فراغ؛ ذلك أن البداية من فراغ ستظل علامة على العجز عن جدة قراءة الآخر أو مناقشة اجتهاده، أو القصد إلى تجاهله، أو حتى الجهل به، أو التنكر له، أو رفضه بلا مبرر، وجميعها صيغ غير مقبولة علميًّا، وجلُّها غير مأمون النتائج لأنه بمعزل عن موضوعية العالم الحق وثقافته الضرورية.

من هنا يبدو للمجتهد الحق فى أن يسأل نفسه : كم قرأت وكم حفظت من النص موضوع التفسير ؟ وكم ألمت بقضايا العلم وأحكامه ومصطلحه وأبعاده ؟ وكم أدركت من أسرار اللغة ومكامن عبقريتها وأدواتها ؟ وكم .. .. وكم .. ..

هذه تظل بمثابة السؤال العبقرى الدال على تميُّز صاحبه ورزانته فكريًّا، بعيدًا عن الاندفاع أو النرجسية أو الاستعلاء على الآخر، وكأننا أمام معيار النفس البشرية من حيث إعجاب كل إنسان بعقله، وكأنه وحده محور الكون، وبؤرة العلم ببواطن الأشياء ! بعيدًا عن التجانس ـ أو حتى الاختلاف ـ مع فكر الآخر، أو الاكتفاء بالانسياح فى أعماق الأنا، وهو ما قد يقبل فى الإبداع لا فى العلم !

بذا يتجلى الخطر فى تغييب الآخر الشاخص فى أية قراءة، وأى من صور الاطلاع والمعرفة، مما قد يزج بالإنسان فى مناطق المزايدة أو التشويش، أو التشويه أو التزييف أو التخبط أو نشر الجهل، وعندها يصبح اجتهاد الجاهل خطأ فى حقه

وحق دينه وتاريخه، وحق أمته. على عكس اجتهاد العالم الذى يحترم ثوابته ومقدسات دينه وتاريخه، ويتخذ من تراث أمته مدخلًا إلى إعادة صياغته والاجتهاد فى الحوار معه، ومن خلاله، ولا مانع ـ آنذاك ـ من إعادة تشكيله، وإعادة تقديمه، أو حتى تقويمه، والأصل فى ذلك كله اصطناع ضرب من المزاوجة بينه وبين إيقاع الفترة ومستحدثات تاريخ المرحلة، دون تلفيق للأشياء، فثمة بون شاسع بين التوفيق والتلفيق فى قضايا العلم ومناهجه؛ فالعلم أساسه العقل، والعقل هو المدخل إلى الحق والحقيقة إذا ما كان صحيحًا وفاعلًا.

يجدر بالعالم الحق أن يعرف قدره وأقدار الآخرين، فلا يجور عليهم فيظلم نفسه ويظلم الآخرين من خلال تضخم الذات، وتوهج الأنا، بما يعكسه من ضيق الأفق وتجاوز الأقدار أو تجاهلها، فمن استسلم لمجرد التوقع بأنه قد علم بكل بواطن الأمور فقد جهل الحقيقة.

إن القراءة السريعة والمهمشة حول كتاب أو ملخص أو موجز أو فكرة فى مساقات الفكر الدينى المتعددة لا تكفى ـ بالتأكيد ـ لإعطاء الكاتب الحق فى ادعاء الثقافة فى حوار مطلق أو مرسل، فلو كان الأمر كذلك لبدت المواقف غريبة غرابة من يعطى نفسه الحق فى الفتوى فى كل شئ دون أن يجيد شيئًا بعينه. لسنا فى عصر " الكشكول "، ولكنا فى عصر الجمع بين مطلب التعدُّدية الفكرية والتخصص العلمى الدقيق الذى يحترم فى الإنسان ـ أول ما يحترم ـ إنسانيته وحريته وفكره وعقله.

وإلا فهل يسمح الفلاسفة ـ وهم أكثر الناس دفاعًا عن العقل وانطلاقًا منه ـ للبسطاء والسذج من الناس باقتحام عالمهم وصياغة نظريات فلسفية يأخذون بها، على الرغم من زعمنا أن لكل فرد فلسفته ورؤيته للوجود ؟ وهل يسمح اللغويون ـ وهم أدق الناس فهمًا لأسرار اللغة ـ لغير المؤهلين أن يقتحموا سياج علوم اللغة والنحو العربى حتى يزعم جاهل مثلًا أنه مجدد حيث ينادى بنصب الفاعل ورفع المفعول لنقول إنه مجتهد ؟! وهل يقبل مثل هذا الطرح فى بقية العلوم ؟

الحق أن المسافة بين الاجتهاد والفوضى يجب أن تحترم احترام ما بين القشور واللباب فى محاور الفكر ومشكلاته، وإلا اختلطت الأوراق وارتبكت العقول، وتدهور الفكر فى غير معترك حقيقي؛ إذ إنه أول ما يجنى ـ آنذاك ـ فهو يجنى على شرف العقل ومنزلته.

لو كان الأمر كذلك لوجدنا فى تراثنا العربى خلطًا عجيبًا بين الشعراء مثلًا والمفسرين، فقد ظل المفسر مفسرًا، رغم اعتماده على الشعر شاهدًا على غرار ما كان من حَبْرِ الأمة عبدالله بن العباس رضى الله عنه. وفى عمق عصور العلم والفقه حاول الإمام الشافعى تبرئة نفسه من الشاعرية ضمانًا لمصداقيته عالمًا وفقيهًا (ولولا الشعر بالعلماء يزرى .. لكنت اليوم أشعر من لبيد) دون أن يزدرى الشعراء ولا الشعر، ولا أن يحقر من منازلهم إلا إذا تعالموا أو تجاوزوا أدوراهم، أو تحول العالم عن العقل والحق، إلى مجرد شاعر ربما لا تشغله الحقائق بقدر ما يشغله فيض الخيال أو إيحاء التوهم. فكانت الرؤية فاصلة بين منطوق الاجتهاد لدى البسطاء والعامة، وبينه لدى العلماء من أهل التخصص؛ الأمر الذى أفرز لنا من مدارس العلم ما أذاعته الثقافة العربية القديمة والوسيطة، بين أقاصى الأرض وأدانيها شرقًا وغربًا فى كل المعارف الإنسانية.

نحن نحترم العالم فى معمله احترامنا للتاجر فى متجره، وللأستاذ فى قاعة محاضراته، ونعطى كل ذى حقه من التوقير والإجلال، بعيدًا عن ركوب الموجات الزائفة، أو الاعتداد بالذات على حساب فكر الآخر عدوانًا عليه، أو افتئاتًا على رؤاه بدءًا من التمرد إلى الرفض أو التهكم دون استيعابه، أو نقده قبل نقضه. ذلك أن النقد تفسير أولًا ومعاناة وإعمال للملكات والأدوات قبل التقويم وليس العكس، ثم إن هذا العكس قد يمثل مدخلًا إلى خطأ الأحكام وخطأ الخطاب، بل قد يغلق باب الاجتهاد.

وانتهاء من هذا الطرح النظرى تبقى لنا عدة تساؤلات علينا أن نجتهد فى الإجابة عليها. ومنها إذا أردنا أن نجتهد :

ماذا قرأنا من حصاد تراثنا ؟ وماذا فهمنا منه، وماذا ألممنا به من مصادره ؟ وكيف تحاورنا معه ؟ وهل تقبلناه على علاته إن نقدناه وحللناه ؟ وهل أعدنا صياغة عطائه ؟ وماذا أضفنا إليه ؟ هل جددنا وابتكرنا ؟ أم اكتفينا بالهجوم والتجريح والازدراء والرفض ؟ هل كنا نصدر عن حب حقيقى للتراث وولاء له وانتماء ؟ أم اكتفينا بإعلان العداء ورفع راية العصيان ؟! هل فهمنا ووعينا وتسلحنا بقراءات كافية فى لغتنا ومكامن أسرارها ؟ وهل قرأنا وتأملنا منطوق علمائها ومفكريها وتاريخها الفكرى الطويل ؟ .... الخ.

الأسئلة كثيرة تنتهى بنا إلى حقيقة مؤداها أن باب الاجتهاد لم يوصد، ولن يوصد شريطة ألا يختلط مع باب الفوضى، وأن يظل سيل تساؤلاتنا متدفقًا حول موقعنا الحقيقى بين تعظيم الموروث وتوظيف آليات المعاصرة، والإفادة من مستحدثاتنا فى إحياء النافع والمفيد من كل ما أفرزته قرائح العقل العربى على مدار حركة التاريخ ! وهو ما يفسح المجال أمام عقول علمائنا لمزيد من الإضافة والتجديد، فهم رجال وأسلافهم رجال وليتنا نجتهد مثلما اجتهدوا دون الاكتفاء بالادعاء، ومن ثم وجب احترام المتأخر لاجتهاد المتقدم وجوب الاعتداد بما بناه الأول وأصَّل له.

ولا جدال فى أن كثيرًا من علمائنا الأجلاء قد قدَّروا منزلة العقل انطلاقًا من تقدير الإسلام له على غرار ما ردده الرازى فى رسائله حين طالب بضرورة الرجوع إليه ـ أى العقل ـ فى جميع الأمور واعتبارها به، واعتمادها عليه، ومضيها على مضائه وتوقفها على إيقافه، وهو ما صرح به أبو العلاء حين جعله ـ أى العقل ـ مشيرًا فى صبحه والمساء.

وكذلك كان موقف كثير من العلماء والفلاسفة والمبدعين فى تاريخ فكرنا العربى ولا أدل على تبجيل الإسلام للعقل بما حرمه من الخمر منعًا لتعطيل الملكة، أو إبطال قداستها التى بسببها سخر الله الكائنات للإنسان، فكان العقل أفضل هبة إلهية مُنح إياها.

فالعقل هو المدخل الأول للاجتهاد، ومن شأنه الإصابة والخطأ، ولكن بعيدًا عن الشطط الظالم حين يفتى صاحبه فى كل ما يجهل، دون احتراز أو تدقيق فيما هو بصدده من منطق الوعى بما بين الحق والباطل من مسافات تتطلب الدقة فى منطوق اجتهاد العالم، حين يرمى إلى الحق وبين اجتهاد غيره حين يقصد إلى تزييف الحقيقة.

obeikandl.com